حكايات القاهرة

وائل عبد الفتاح

مصر في لحظات نقل الملكية وصراع الورثة

كل حدث في مصر يتحرك إلى الحافة، لا شيء يتحرك طبيعياً. الحدث يتحرك بدفعة كبيرة من خارجه، ربما هذه طبيعة لحظة نقل الملكية، وتوابعها الغامضة، وربما الفراغ الذي يسمح لأي شيء بالانطلاق إلى مداه الأخير

سرقة خلف خطوط الضعف

لم يكن اللص المكسيكي يعرف مكان لوحة فان غوغ. كان مشغولاً بمعرفة خطوط القاهرة،كما يعرفها من«غوغل إيرث». ورغم أن سرقة الشقق تحتاج إلى علاقة بالمكان، إلا أن العصابة التي تكونت عبر غرف الثرثرة، استطاعت أن تتسرب من ثغر الأمن، وتسرق نحو 20 مليون جنيه.

العصابة الدولية ليست الأولى، سبقتها عصابات أخرى، عرضت إمكاناتها في ظل تصنيف مصر جنة للصوص، وفي ظل فوضى يبدو فيها الأمن قوياً ومسيطراً، لكنّ لترسانته شقوقاً تعبر منها عصابات ولصوص مهووسون مثل سارق «زهرة الخشخاش».

لص «الزهرة» غامض الأهداف، ماذا سيفعل بغنيمة لا يقدر على بيعها أو المتعة العلنية بامتلاكها؟ هل هو مهووس، استعراضي يبحث عن شهرة، ويخرج لسانه للنظام والحكومة اللاهية عن ثرواتها؟ أم مندوب مافيا تجارة سرية تدخل باللوحة مساومات على أشياء أخرى؟

اللص كان لديه وقت كامل في ظل غفلة من يحسب اللوحة «مجرد تصويرة لا قيمة لها»، وهو تصور لدى كل الواقفين على بوابة قصر محمد محمود باشا، الشخص الغريب من نوعه.

كان وزيراً للزراعة في حكومة النحاس، ورئيساً لمجلس الشيوخ مرتين، لكن شهرته كانت في الفن والهوس بتلك الطاقة التي تجعل قطعة قماش أو خشب أو ورق، نابضة بالحياة.

الباشا لم يكن نبتاً شيطانياً، كان ابن مرحلة وعصر ظهر فيه الأمير يوسف كمال، مؤسس كلية الفنون الجميلة، رئيس جامعة القاهرة، الذي أسهم بثروته الكبيرة في تنمية القرى في الصعيد، وعندما قامت ثورة الضباط في تموز 1952 أعاد إلى مصر مجمل ممتلكاته في الخارج، وسدّد ثمن ماكينات زراعية اشتراها من أوروبا لأرضه التي كانت مصادرة. باشوات من زمن لم يكن الفن فيه منبوذاً أو مجرد أداة ديكور كما هو الآن. والقضية ليست مجرد معلومات عن الفن وأسماء الفنانين، لكنها روح مفقودة الآن، تتسع لترى أوسع من احتياجات اللحظة الراهنة وغرائزها. روح متسعة تستطيع أن تحتفي بقدرات البشر على الإبداع والتأمل والتفكير.

والفقر هنا ليس مبرراً. كل الفنانين فقراء، وحياتهم بائسة، لكنهم أضافوا للعالم هواءً يجعل العالم أكثر رحابة، ورقياً، وأقل انغلاقاً وتطرفاً.

هكذا فإن الأرواح المحرومة من الموسيقى ممنوعة من السفر في دروب الفن، أرواح فقيرة بائسة، يمكنها التحول إلى قطيع من التعساء ولو ملكت ثروات الأرض.

هكذا فإن محمد محمود خليل من فصيلة انقرضت، بعدما سيطر عقل التتار الهمجي، العشوائي، ليغلق منافذ الهواء المفتوح.

عقلية لا تحترم الفن، واحياناً تتباهى به، أو تفخر بمعرفة نجومه. وهنا لا فرق بين حوت من حيتان الانفتاح وما بعد، فالرئيس السادات يفخر بتوقيع أشهر مصممي الأزياء على ملابسه، لكنه أغلق متحف محمد محمود خليل وحوّله إلى مبنى ملحق بقصره.

الباشا المهووس بالفن تبرع بالقصر والرئيس حوّله إلى مخزن. وليس غريباً هنا أن يسرق اللصوص اللوحة مرتين، بينما الموظفون بدم بارد يقولون إن الكاميرات معطلة. لماذا فتحتم المتحف من دون كاميرات؟ وكيف عبر اللص الحواجز بمشرطه؟

لماذا يبدو الأمن يقظاً فقط في الحفاظ على الرئيس وعائلته؟ الرئيس ثار من الخديعة، وطالب بالانتقام من أجل «فان غوغ»، الذي دخل السجال المصري كما لم يتوقع أحد، فجماعة الإخوان المسلمين طالبت بالتحقيق في ضياع اللوحة.

شغف بالفن بدا ضد عقلية الجماعة، وضد اهتمام المصريين، الذين فوجئوا بأن هذه اللوحات تصنع ثروة. محمود سعيد، المصري الفرنسي بيعت لوحته في دبي بـ12 مليون جنيه، و«زهرة» فان غوغ تقدّر بـ300 مليون جنية. الأرقام هذه أثارت الحوارات عمودياً وأفقياً حول الفن، إلى درجة أن عمرو أديب استعرض بثقافته الفنية على جمهوره، وأفاض في الإشادة ببراعة لوحات الفنان الهولندي، واستخدامه الضوء، ومهارته في تجسيد النساء. صوته كان يعلو بينما يشرح أسباب إعجابه بفان غوغ علة لوحات رمبرانت.

فاروق حسني محبوس في خانة ضيقة، يدخلها بنصف وعي وبرغبة كاملة في الدفاع عن النفس. لسرقة اللوحة تأثير يهدده شخصياً. هنا ينفعل ويخرج عن الصورة الوديعة والمبتسمة التي اجتهد في رسمها لنفسه. يتحول الخروج عن الصورة إلى «استعراض وفرجة» لا يمكن

لوحة فان غوغ المسروقة (أ ف ب)

حرب مواقع لترتيب المحميّات

بدأ الصراع بالخروج إلى العلن. لم تعد طبخة الرئيس المقبل حكراً على طبّاخي القصور والغرف السريّة. باتت عامة، وإن بدرجات متفاوتة. صناعة الرئيس المقبل باتت أشبه بمعركة على المواقع والمحميّات السياسيّة

«الخرائط تتغير»، قالها الرجل الخبير بالاستمرار في اللحظات الحرجة. خبير هو بمعرفة اتجاهات الرياح، ويشم رائحة الغدر قبل أن يتحول إلى ضحية حمقاء.

الأحمق الآن من لا يفهم إشارات وعلامات العاصفة الآتية، ويحافظ على موقعه القديم، أو يهرب مع الباحثين عن ملجأ للاختفاء في الأيام الصعبة المقبلة.

الخبير يبحث عن المخبأ. ويخفض من حجم تعاملاته. ويدخل في عباءة المؤسسة الخطيرة التي كونت شركات تبتلع كل المقاولات التابعة للقطاع الذي يعمل فيه.

ورغم أنه كبير في مجاله، إلا أنه اختار العمل تحت عباءة التنين، أو المؤسسة الكبرى التي انتشرت في الأيام الأخيرة واحتلت مواقع متقدمة في البيزنس.

البلد الآن رهن صراعات لا ترى بالعين المجردة. ومن الممكن أن يتحول الشخص من صاحب مال ونفوذ وجاه، إلى ضحية في لمح البصر، كما حدث مع صاحب «السليمانية» الذي تنتشر الحكايات عن سبب طرده من خط الحماية.

الحكايات كثيرة، وأهم من الموقف القانوني. قانون المحميات السياسية ثابت، لكن هناك حرب الآن لترتيب المحميات حسب المنتصر في حرب المواقع.

معظم المقيمين خلف أسوار المحميات السياسية يعملون في الخفاء، إنهم أبناء نظام مبارك وقصصهم هي الحكاية الحقيقية لما حدث في الـ30 سنة، هم اللاعبون الأساسيون، يعيشون في خير النظام وينقذونه من ورطات سياسية، كوّنوا ثرواتهم بقربهم من المنطقة الدافئة في قصر الرئاسة، وتحولوا إلى ديناصورات مالية ببركة الرضى السامي، ويؤدون أدواراً لا تُعلن، لكنها تمنحهم المزيد من الثقة وتزيد فرصهم في حماية أكبر.

حرب المواقع لها ضحايا، وهذا سر مزاج الرعب الذي تعيشه حركة المال في مصر. حركة قلقة تتجه إلى شراء الأراضي، أو العمل بنصف الميزانيات، أو الدخول في تكتلات تحت حماية مؤسسات صلبة، أو لها عمود في بنيان الدولة.

إلى أين ستقود هذه الحرب المحمومة؟ كيف ستؤثر على ترتيبات الحياة ما بعد مبارك؟ إنها مرحلة «نقل الملكية» وسط صراعات الورثة، وهي عملية كانت تجري بهدوء ومن دون إزعاج.

لكن هذه المرة تتغير الخرائط. والأطراف التي استقرت 30 سنة في لعبة واحدة، تريد الحفاظ على نفسها. والجميع يريد مع تثبيت موقع، الحصول على صكوك بالشعبية من جماهير لا تعرف أنها صاحبة الحق الوحيد في رسم الخريطة وتقرير من يحكم مصر.

لم يكن الرئيس مبارك يقصد أن يصنع كل تلك الضجة حول خلافته عندما أعلن إجراء تعديلات المادة 76 قبل سنوات. لم يكن يقصد سوى امتصاص غضب الرئيس جورج بوش الابن، والايحاء بأن مفتاح الإصلاح في يده لا في يد أحد غيره. لكن رغبة الرئيس ونياته في تعديل الدستور لم تسيطر على كل التفاعلات، وأحدثت التعديلات، رغم كل شيء، فورة سياسية، أو بالتعبير الأكثر وقاراً «حراكاً سياسيّاً» خارج سيطرة الرئيس والنظام.

الفرق كبير بين الهدف النائم في قلب النظام ورئيسه، وما يحدث في الواقع المتعطش إلى الخروج من الأنفاق الطويلة لنظم ما بعد استيلاء الجنرالات على الحكم.

الرئيس أراد استيعاب ضربة من واشنطن، وقام بخطوة، اعتقد أنها اليوم أكبر من توقعاته، وأصبح هناك للمرة الأولى سؤال «من سيكون الرئيس؟». وللمرة الأولى لا تحسم مسألة اختيار رئيس الجمهورية في الكواليس السرية.

والنظام نفسه حائر ومجبر على التفكير والتلاعب. مجبر على النزول إلى الشارع. اضطر جمال مبارك للنزول إلى الشارع، ومن قبله الرئيس نفسه. وفي هذا النزول خدش لفكرة أنهم وحدهم يملكون كل المفاتيح. باختصار: «كانت بهزار وقلبت بجد».

ولم يعد من الممكن أن يُحكم المصريون بشخص خارج من وراء الستائر الثقيلة لكهنة النظام. صحيح أن المجتمع لا يزال

ملصقات تروج لجمال مبارك (عمر نبيل ـ أ ب)